بين الحقيقة والخيال

بقلم الأستاذ عبد اللطيف المغربى
المفتش بوزارة المعارف

- ٢ -

صورة من النقد الأدبى

الوضع وأثره فى الأدب

وشاء ربى أن يشتد الحر حتى كظم الأنفاس أواره ، ولفحت الوجوه سمومه ، فاتخذت طريقى الى شاطىء النيل لأبترد . وأغلل النفس بهبات مختلسة من النسيم يجود بها الجو ، كلما غفت عنه عين الحر قليلا . وجلست على الشاطىء فاتر الهمة ، مجهود النفس ، شارد اللب من الحر ، فلا أنا باليقظ الذى يرصد ما حوله من جمال وبهاء ، ولا بالنائم المستريح مما يكده من جهد وعناء . وأنشدت قول بشار :

ويوم كتنور الإماء سجرته وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما
رميت بنفسى فى أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

فما راعنى إلا نأمة أحسستها من النهر ، جمعت لها قواى ، وأرهفت لها سمعى ، وأشخصت بصرى نحو الماء ، فإذا هو يصطفق اصطفاقا شديدا ، ويتكشف عن حوت لطيف المنظر . يدنو من الشاطىء مسرعا فى غير خوف ولا استحياء ، وكأنه سيف صقيل ، يقطع صفحة النهر المنبسطة فى استواء ، ففزعت لرؤيته ، وجمعت نفسى الشاردة ، وتعلقت بأذيال الفرار ، لا ألوى على شىء ، وإذا صوت أغن رقيق النغم يناديني من ورائى ، فذكرت أنى سمعت هذا الصوت من قبل . فقرت نفسى ، وزايلنى الفزع ، وغشيتنى السكينة . والتفت ورائى أتبين صاحب الصوت ، فعرفت فيه - وقد استوى بشراً سوياً - وجه العصفور صاحبى القديم . فاقبلت إليه محيياً ، فحياني أطيب تحية ، واستقبلنى أجمل استقبال ، وبثنى شوقه إلى مجلس تتجاذب فيه أطراف الحديث . ومتع القول والفكر ، وبدهنى بقوله : لقد أعجبنى بيتا بشار وصدقهما فى وصف الحر وشدته . وهما به أشبه : حلاوة منطق ، وقوة سبك

وجزالة ألفاظ ، وقرب محاكاة للبيئة ، وقد التقت فيهما لمع من بداوة الجاهلية ، وتضرة المدنية ، مما يشعرك حقا أن بشارا كان خاتمة الشعراء الإسلاميين ، وزعماء الشعراء المحدثين .

أنا — كأنك تتحفظ فى نسبة الشعر والنصوص والأخبار إلى قائليها ، وتقيسها بمقاييس من روح البيان ، وطبيعة الكلام ، وخصائص البيئة ، والملابسات الصحيحة الملائمة لزمان القول ؟

العصفور . هذا حق وهو ما يجب أن يكون وسيلة لتربية ملكة مدربة على نقد الشعر والنثر والأخبار ، لتميز صادقها من كاذبها ، وصحيحها من زائفها ، ولقد كان للوضع أثر شنيع فى العلم والأدب ، فقد غمرهما بكثير من الدخيل ، الذى لا أساس له . فاختلطت أمور ، وتشابهت حقائق ، وأقحمت نصوص وأخبار نسبت إلى غير أصحابها . والحفاظ والرواة والمؤلفون يتداولونها أحقاباً طويلة ، بلا بحث ولا تمحيص ، فنجمت عن ذلك أضرار لا يقدرها حق قدرها إلا كل ذى بصر نافذ ، من أهل العلم والأدب .

أنا — لقد أثرت أيها الصديق معنى كان يعتلج فى صدرى من قديم ، فهل أنت ذاكر لى كلمة عن أسباب هذا الوضع فى العلم والأدب ؟

العصفور — يسرنى أيها الأخ الكريم أن أتحدث إليك فى هذا الموضوع الخطير ، الذى كان له عظيم الأثر فى تضخم العلم والأدب ، بما ساق إليهما من زوائد وروافد ؛ فلعلك تعلم أن العرب كانوا قبائل وشعوبا ، وفيهم من يود فى مقام الفخر ومساماة غيره ، أن ينسب إلى آبائه وأجداده من المكارم والمآثر ، ما يستعين به على الوصول إلى مأربه ، ورمت الأيام الأمة العربية بالانقسام . فكانت فرقا علوية وعثمانية ، وأموية وعباسية ، وظهرت الشعوبية قوية نشيطة لمقاومة العروبة . وكان لهذه الفرق جميعا أعوانها وأنصارها ، يؤيدون مذاهبها ، ويذيعون فضائلها ، ويكثرون من مثالب غيرها ، وظهرت الفرق الدينية من شيعة ومعتزلة وخوارج وقدرية وغيرهم .

ودخل فى هذه الفرق كثير من غير العرب ممن يحملون صورا وأوهاما من

دياناتهم القديمة ، فوضعوا فى الساحة العربية الإسلامية المطهرة بذورا جديدة لاتمت إلى سماحة الإسلام وطهره ويسره بنسب . فامتزجت بتعاليمه وليست منه فى شيء . وقد تشعبت هذه الفرق ونمت نموا عظيما ، وتولد بعضها من بعض وغالى بعض رجال هذه الفرق فى الوضع والدس فى الأحاديث والحقائق التى نسبوها إلى الدين مما لايكاد يخطر على بال مسلم . والواضع فى الدين أحد رجلين : رجل ساذج حسن النية وضع ماوضع وهو يرى فيه تحقيقاً لأحلامه وتصوراته ، ولا يرى فيه غضاضة على الدين ، ورجل ماكر خبيث النزعة شديد الضغن على الإسلام يريد الإفساد فيه ، والتشويه من جماله ، فينسب إليه ماليس منه مما يثير شبهة أو يحرك مطعنا .

وكان قوم من الرواة والحفاظ لهم جرأة وقدرة على الاختراع والابتكار كخلف الأحمر . وحماد الرواية ، ومن على شاكلتهما ، وهؤلاء أحبوا أن يظهروا بالتزيد فى الأدب . والوقوف على ما لم يقف عليه غيرهم . وكانت الحالة الاجتماعية وانتشار مجالس الانس والسمر وشيوع الترف وميل الملوك والأمراء إلى التفكه والتنادر ، مما دعا إلى كثرة القصاص الذين أسرفوا فى الابتكار والاختراع ، وكان من وراء هذه الفوضى فى الوضع أن أصيب كثير من عظماء الأمة العربية والدولة الاسلامية بنسبة أمور إليهم تأباها المروءة والشرف العربى وجلال المكانة . ويعلم الله أنهم منها أبرياء .

أنا — إنى لشاكر لك هذه الجولة الصادقة فى بيان أسباب الوضع فهل لك أن تتكرم وتعرض علىّ بعض صور من الوضع فى الأدب وتعرض على أدلة وضعها ؟

العصفور — إن الوضع فى الأدب ياسيدى كثير جدا ، وهو أخصب نواحى الوضع وأحفلها ومن حقك على أن أسوق اليك بعض أنواع منه : —

١ — ذكر صاحب الأغانى أن الوليد بن يزيد اشتاق يوما الى معبد المغنى المعروف بالمدينة ، فبعث اليه فلما حضر أمر ببركة بين يدى مجلسه فملئت ماء ورد وقد خلط بمسك وزعفران — وفى رواية ملئت ماء وخمرا — ثم فرش

للوليد فى داخل البيت على حافة البركة ، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة ، وجاء فسلم على أمير المؤمنين ، فرد عليه السلام . وقال له : أتدرى لم وجهت إليك ؟ قال الله أعلم وأمير المؤمنين ، قال : ذكرتك فأحببت أن أسمع منك ، قال معبد أوغنى ما حضر ، أم يقترح أمير المؤمنين ؟ قال بل غنى :

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عداء

فما فرغ منه معبد حتى رفع الجوارى السجف ، وخرج الوليد فألقى بنفسه فى البركة . ثم غاص فيها ، وخرج منها ، فاستقبلته الجوارى بثياب غير الثياب الأولى ثم شرب وسقى معبدا وقال له غنى :

ياربع ما لك لاتجيب متيما قد عاج نحوك زائرا ومسلما
جادتك كل سحابة هطالة حتى ترى عن زهرة متبسما
لو كنت تدرى من رعاك أجبته وبكيت من حرق عليه ـ إذاً ـ دما

فغناه ورفعت الجوارى السجف ، وخرج الوليد فألقى بنفسه فى البركة ، فغاص فيها وخرج ، ولبس ثيابا أخرى ، ثم شرب وسقى معبدا ، ثم قال له : غنى :

عجبت لما رأتنى أندب الربع المحيلا
واقفا فى الواد أبكى لا أرى إلا الطلولا
كيف تبكى لأناس لا يملون الذميلا
كلما قلت اطمأنت دارهم قالوا الرحيلا

فألقى الوليد بنفسه فى البركة وشرب ، وسقى معبدا ، وقال له : من أراد أن يزداد عند الملوك حظوة فليكتم أسرارهم ، فقال : ذلك ما لا يحتاج أمير المؤمنين إلى إيصائى به ، فأمر له بجائزة .

وللوضع فى هذه القصة مجال كبير . فقد رويت على صورتين : إحداهما مختصرة قطعها الشعرية ثنتان ، والأخرى مطولة قطعها ثلاث ، واختلفت أسماء الرواة ، وتضاربت الأقوال فيما ملئت به البركة . وهو على رواية ، خمر ممزوجة بالماء ، وأن الوليد حين كان يرمى بنفسه فى البركة يعب منها ليسكر ويطرب ، وإنا لنترفع بأمير المؤمنين الوليد بن يزيد عن مثل هذه الأعمال ، التى تفوقها أعمال الصبيان

سموا ورزانة ، ولا يقدح في قولنا أنه كان مسرفا في لهوه ، مستهترا ؛ لأن ذلك الإسراف إنما يكون بالقياس إلى حالة عصره . وهو في جملته عصر صلاح واعتدال . وما الذي كان يضطر الوليد إلى هذا العبث الشائن أمام معبد ، ثم يعود يستعطفه ويوصيه بكتمان ما رأى ، وهو أمير المؤمنين له جلال مركزه ، وعيون رعيته ترقبه .

ومهما يكن من أمره فإنه لا يستطيع إهمال ما يجب أن يتحلى به من الاتزان والرجولة . ولو في ظاهر الأمر تقديراً لموضعه من الخلافة والأمة الإسلامية القريبة العهد من عصر الخلفاء الراشدين ، ومن روح الإسلام القوية ، وسلطانه على النفوس . وإذا أجريت الأمور على نواميس التدرج والارتقاء ، وعلمنا أن مثل هذا لم يقع في العصر العباسي ، عصر الحرية والتطرف في اللهو والمتعة ، كان من الحتم ألا نصدق وقوع ذلك في العصر الأموي السابق عليه . إلا إذا انقلبت الحقائق وتبدلت طبائع الأمور . وأصبحت تبدأ كبيرة ، وتنتهي صغيرة ، وهذا ما يصدف عن قبوله العقل . وقد يكون للعداء بين الأمويين والعباسيين أثر في صوغ هذه القصة ، وقد انفرد برواياتها أبو الفرج الأصبهاني المؤلف العباسي .

والذي نسلم به ولا يأباه العقل ورود معبد على الوليد ، وغناؤه له بأية صورة كانت ، أما هذا الشعر الذي اختلف في إيراده الرواة ، وعلى هذه الصورة الغريبة من العبث ، فما لا نسلم به ونجزم بأنه موضوع .

٢ — وذكروا أن المأمون العباسي جلس يوما للمظالم . فدخلت عليه امرأة عليها هيئة السفر . وثيابها رثة فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ... ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة ... عدا عليها فلم يترك لها سبد
وابتز مني ضياعي بعد منعتها ... ظلما وفرق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دون ما قلت زال الصبر والجلد ... عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
— والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... نصفك منه ، وإلا المجلس الأحد

وأنصفها المأمون . فهل ترى بعد ذلك مثارا للدهشة ومدعاة إلى الضحك ؟ ؛ امرأة تدخل على خليفة فى مجلس المظالم ، فتنشده شعراً يصور قضيتها ، فيجيبها الخليفة بمثل قولها من الشعر لوقته — على حين أن ذلك مطلب يصعب على فحول الشعراء إن هم حاولوه فى كثير من الأحيان ، وطالما منوا بالإخفاق فى محاولته — وليس المقام مقام مفاكهة ومداعبة ، فذلك أولى بمسارح التمثيل ، ومواقف الماجن والمجون ، لا بمجالس القضاء ، ومنازل الخلفاء .

ونعود إلى الشعر نفسه نعرضه على قوانين الفن ، ودواعى الذوق ، وروح العصر ، فنراه شعرا مسفا يضطرب ، فى ركة وضعف ، وسوء تكلف ، ولا يلائم روح العصر العباسى ، ولا طلاوة القول فيه — وعجيب أن ترى فى هذا الشعر الفعل مبنيا للمعلوم ، ثم ترى الفعل بعده محولا للمجهول بلا داع ولا حكمة بلاغية ، مثل « عدا عليها فلم يترك لها سبد » ومثل « وابز منى ضياعى » ، وفرق منى الأهل والولد » ، وما ذلك إلا أثر ضعف وعجز عن بلوغ الأكمل والأجمل من أساليب الكلام العالى ؛ وكم فى قول المأمون « فرضا » فى دون ماقلت زال الصبر والجلد » من عجب . فعظيم من المأمون — رب السيف والقلم . ومدبر الدولة الإسلامية الكبرى ، التى ترجف لسلطانها قلوب الدول إذ ذاك — أن يظهر جزعه وفزعه وزوال صبره وجلده لحادث يسير كهذا ، وهو الرجل القوى الجلد ، الذى طالما خاض غمار الحروب ، وقاسى الشدائد والأهوال ، ولاقى فتنا كقطع الليل مظلمة ، فلم تعرف فيه رقة القلب ، ولا خور العزيمة ، وفى قوله « والمجلس السبت ... وإلا المجلس الأحد ، ضعف وفتور .

وبعد ، ألست ترى معى أن القطعتين من طراز واحد لاتحاد خصائصهما فى الضعف والتعمل ، واضطراب الأساليب ، وتعادل القوة الشعرية فيهما . فلهذا وما سبقه لايخامرنى شك فى أن هذه القصة منتحلة . وقائل القطعتين بلاريب واحد ، ومن العجيب أن يفوت هذا التمحيص عالما جليلا كابن عبد ربه ، الأديب العالم الظريف ، فيروى هذه القصة فى عقده ، ولا يعلق عليها بكلمة واحدة يظهر بها عدم ارتياحه إلى صحتها ؛ ولكن إذا عرفت أن مؤلفينا القدماء كان همهم الجمع لترتيب كتبهم ، عرفت السر فى موقف ابن عبد ربه من هذه القصة .

٣ — ونعرض عليك قصة يصح الوضع من نواحيها؛ لأنه واضح ومكشوف وهي كما رواها ابن الجوزي في كتابه « الأذكياء » تلخص في أن فتى كان يهوى جارية ، وكان زوجها مزمعاً سفراً بعد يوم أو يومين ، فأرسل الفتى إليها غلاما ينشدها :

لحى الله من يلحى على الحب أهله ومن يمنع النفس اللجوج هواها

ففهمت الجارية فقالت :

ألا إنما بين التفرق ليلة وتعطى نفوس العاشقين مناها

فسمعت أمها فقالت :

ألا إبلغون ناقة رحلكم فمن كان ذا نوق لديه رعاها

فسمع الأب فقال :

فإنا سنرعاها ونوثق قيدها ونطرد عنها الوحش حين أتاها

ففهم الزوج فقال :

سمعت الذي قلتم فأنا مُطلق فتاتكم مهجورة لبلاها

قد نسلم أن الفتى شاعر ، فهل من الضروري أن تكون الفتاة شاعرة أيضا ؟ وهل من الحكمة والعفة أن ترفع عقيرتها ببيت من الشعر ، تظهر فيه أملها المنكر في غير حياء ولا وجل ؟ والحياء أعز شيء تحرص عليه المرأة . ومن المصادفة العريضة المرنة أن يكون أبوها وزوجها وأمها شعراء أيضا ، وليس بمعقول أن تكون إجابة أبيها وأمها بصوت مسموع . وبيتين من الشعر يسجلان فيهما على ابنتهما هذا العار ، فيأنف من ذلك كله الزوج ويطلق الفتاة .

وإن هذا الترتيب في أجزاء القصة — بأن يبدأ الفتى الواله ثم الجارية فأمها فأبوها فزوجها ، وينتظر كل منهما الآخر فلا يسبقه في القول ، ويجعل كلامه مرتبا على كلام سابق — لترتيب روائي محض ، ولماذا لم يسمع الزوج قبل الأب فيجيب ؟ أو الأب قبل الأم فيجيب ؟ ألا إن ذلك كله سلسلة مصادفات أحكمها الوضع ، ورتبها القصد ، وفوق هذا تجد الأبيات كلها متشابهة في قوة النسج والصناعة والمنزلة الشعرية ، فهي في نظري ثمرات للسان واحد مصنف .

٤ — ولقد كانوا يضعون الأبيات من الشعر للاستدلال على قاعدة نحوية — فقد قالوا إن أبا يحيى اللاحقى سأله سيبويه يوما : هل تعدى العرب « فَعِلاً » ؟ وهو من صيغ المبالغة فوضع له البيت الآتى :

حذرٌ أموراً لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار

ونسبه إلى العرب وأثبته سيبويه فى كتابه — وما دفع أبا يحيى إلا حبه فى الظهور بمظهر العالم الواسع الإلمام العظيم الحفظ الذى لا يفوته شىء من تراث العرب . ومن هذا الباب ما يروى : من أن حمادا الراوية والمفضل الضبى اجتمعا عند المهدى فقال للمفضل : إنى رأيت زهيراً افتتح قصيدته بقوله :

دع ذا وعد القول فى هرم خير البداة وسيد الحضر

ولم يتقدم قبل ذلك قول . فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال المفضل ما سمعت فى هذا شيئا — إلا أنى توهمته كان فى قول يقوله ، أو كان يفكر فى شىء من شأنه فتركه وقال : « دع ذا . . . أى دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول فى هرم

فسأل المهدى حمادا فقال : ليس هذا قال زهير : يا أمير المؤمنين . قال كيف قال ؟ فأنشده ثلاثة أبيات زعما مطلع القصيدة وهى :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين مذ حجج ومذ دهر
لعب الرياح بها وغيرها بعدى سوا فى المور والقطر
قفر يمندفع النجائب من مضوى أولات الضال والسدر

فعجب المهدى وسأل المفضل عن هذه الزيادة فأنكرها ، فداخل المهدى الريب فى صحتها . فما زال بحماد حتى اعترف بأن الزيادة من وضعه ، وليست من قول زهير فرضى المهدى عن الضبى وزادت ثقته به وعرف الجرأة فى حماد على الوضع ؛ ولهذا فرق بينهما فى الصلة ، فجعل صلة المفضل العليا ، وصلة حماد الدنيا ، تقديرا لمنزلة الرجلين فى الرواية .

٥ — وأسوق اليك قصة عجيبة الصنعة يرفعون نسبها إلى عبد الله بن المبارك المحدث الورع المشهور قال : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام وزيارة

قبر نبيه عليه الصلاة والسلام . فبينا أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد فتميزت ذلك ، فاذا هي عجوز عليها درع وخمار من صوف ، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت : « سلام قولا من رب رحيم » فقلت لها : يرحمك الله ، ما تصنعين في هذا المكان ؟ قالت : « ومن يضلل الله فلا هادي له » فعلمت أنها ضالة عن الطريق . فقلت لها أين تريدين ؟ قالت : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فعلمت أنها قضت حجها وهي تريد بيت المقدس . فقلت لها : أنت منذ كم في هذا الموضع؟ قالت: « ثلاث ليال سويا » فقلت : ما أرى معك طعاما تأكلين. قالت: « هو يطعمني ويسقين » قلت فبأي شيء تتوضئين ؟ قالت « فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » . قلت لها: إن معي طعاما فهل لك في الأكل قالت « ثم أتموا الصيام إلى الليل » قلت: ليس هذا بشهر رمضان . قالت : « ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » وهكذا يسير النظام في هذه القصة على هذا النسق الغريب من وضع أسئلة يختارها الواضع كما يشاء « ويجعل أجوبتها من كلام الله جل شأنه .

وصوغ القصة على هذه الصورة يدل على فطنة واضعها ، وأنه صرف وقتا طويلا ليلائم بين أسئلتها وأجوبتها ، وليس من المعقول مطلقا ان تجيب هذه المرأة عن الأسئلة الموجهة اليها بآيات من القرآن الكريم مهما تكن بجيدة لحفظه ، وإنا لنحفظ القرآن الكريم ولو وجه إلينا سؤال على أن نأتي له بجواب من القرآن لتريثنا طويلا وأطلنا التفكير وقد نوفق أو لا نوفق . فكيف تجيب هذه المرأة على هذه الأسئلة الكثيرة تباعا في أوقات متلاحقة عفو الخاطر والبديهة ؟

لهذا كله نثق بأن هذه القصة لم تقع بين عبد الله بن المبارك والمرأة ، وهي من صنع مؤلف صرف وقتا طويلا لإخراجها على هذه الصورة وقد نسبها إلى عبد الله بن المبارك لتروج وتقع المناسبة بينه وبين موضوعها ، وهو الرجل الصالح المعروف .

أنا — لقد سرني هذا العرض للحقائق ونقدها نقداً دقيقاً صحيحاً قائما على الدليل الحسي والنفسي مما لا يدع مجالا للريب — وسيكون لذلك أحسن الأثر

فى نفسى فأهتدى إلى تمييز الحقائق وقياسها بمقياس المنطق وتطبيقها على أصول الذوق والعرف والسعادة . فجزاك الله عنى خير الجزاء .

وهل يرى صديقى أن الوضع فى جميع حالاته شر

العصفور — إنى لا أرى الوضع فى الأدب شرا ؛ لأنه خصب له وتنمية فيه ، فهو من حيث موضوعه مقبول ، ولكنى أذمه من حيث نسبته إلى أناس غير قائليه لما فى ذلك من عدوان على الحق ، ولما فيه من خلط وإفساد ، ولأن هذه النسبة قد لا تشرف المنسوب إليهم لما فيها من أمور تشين سمعتهم ، وتقدح فى كرامتهم ، كما نرى فى كتب الأدب من قصص وأخبار — أما الوضع فى العلم والدين فهو شر محض لأنه مفسد للحقائق ، وقد يحل حراماً أو يحرم حلالا ، وما هو إلا ضرب من الهدم الشنيع ، ولهذا أمقت الوضاعين فى هذه الناحية مقتاً عظيما ، وعليهم وزرهم يوم يوفى الله الظالمين حسابهم .

أنا — ماأطيب هذا اليوم وأسعده ! لقد حببته إلى على مابه من حر وعنت ، بما أسديت إلىّ من فوائد قيمة وبما رسمت لى من طريق واضحة إلى تذوق الأدب ونقده .

العصفور — شكرا لك أيها الأخ الكريم فما ذلك إلا قبسة من ضوء فضلك ، وغرفة من بحر أدبك ، وإنى لأطرب إلى لقائك وأهش إلى حديثك ، فلا تسرف فى النأى ، ثم انتفض انتفاضة عاد على أثرها صوتا فاتخذ سبيله فى البحر سربا .

عبد اللطيف المغربى